# دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي المعاصر

بقلم ادريس الكتاني

اذا شئنا ان نضع تخطيطا اوليا للدور الذي يمكن للاديب العربي ان يلعبه في بناء مجتمعه العصري ، ايان كان الاسلوب الذي اختاره اداة للتعبير ، فانه يمكن ان يلخص في العناوين التالية :

١ ـ وصف وتحليل المجتمع العربي تحليلا علميا ، واكتشاف خصائصه وقيمه النفسية والاجتماعية والدينية والتاريخية والجغرافية.

٢ ـ ابراز مواطن الخلل والاضطراب في ابنية هذا المجتمع ، ووصف خطورتها وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع .

٣ ـ ابراز عناصر القوة والتماسك والوحدة في هذه الابنية ايضا، وتحليلها ، واظهار محاسنها .

٤ ـ دعم القيم والعادات والتقاليد الجميلة والحيوية في المجتمع، وتحبيب الناس فيها ، وبالمقابل ، التنفير من التقاليد والعادات السيئة، والمعرقلة لتطور وازدهار المجتمع .

٥ ـ تتبع ومراقبة الاحداث والتطورات والاتجاهات القومية والعالمية ، وتفسير بواعثها ونتائجها تفسيرا يتلاءم مع الخطوط العامة لرسالته الاصلاحية .

ومن البديهي ان الاديب العربي المعاصر ما لم يكن مؤمنا بانه صاحب رسالة انسانية، تفرض عليه تحمل المسؤولية ، وقبول التضحية، والتحلي بالصدق والشجاعة والايمان ، وما لم تكن له ثقافة عالية ذات جذور نابعة من تراث مجتمعه ، لا مجرد نسخ لثقافة اجنبية ، فانه لا يستطيع ان يجعل من أدبه اداة ثورية فعالة في بناء مجتمعه الجديد.

ونحن عندما نتحدث عن بناء المجتمع العربي ، نقصد ولا شك تغيير البناء او اعادة البناء باعتبار ان البناء الحالي اصبح متناثرا ومشرفا على السقوط ، وعندما نتساءل عن دور الاديب العربي في هذا البناء ، نحس في اعماقنا بخيبة امل بعدما فشل في القيام بهذا الدور رجال آخرون سبقوه ، فيهم المصلح الديني والزعيم السياسي ، وفيهم القائد العسكري ، لقد حاولوا جميعا ترميم هذا البناء دون جدوى ، فهل سيكون الاديب اسعد حظا منهم ؟

لنعد اذن الى العنوان الاول في التخطيط ولنتساءل : هل الاديب العربي المعاصر يعرف حقا مجتمعات العالم العربي ؟ هل درسها دراسة علمية واكتشف خصائصها النفسية والاجتماعية ؟ لو ان الاديب العربي كان قد فعل ذلك لكان قد جنب الزعيم السياسي من الوقوع في كثير من الاخطاء ، ولقدم لمجتمعه العربي اعظم الخدمات .

ان الظاهرة البارزة في المجتمع العربي هي ظاهرة التخلف ، وقد اكدت الاحداث التي مرت بالعالم العربي وغيره من اقطار العالم الثالث ان التخلف ليس فقط ظاهرة اجتماعية عامة ، وانما هو ايضا ظاهرة نفسية فردية، ذلك ان الانسان العربي الذي تعلم في الجامعات الغربية، وتبنى الافكار التقدمية ، وربما المبادىء الشيوعية ، وتزوج امرأة اجنبية ، هذا الانسان لا يلبث بعد ان يعود لمجتمعه المتخلف ، وتتاح له فرص الحكم والاثراء والاستمتاع بمباهج الحياة ، ان يستعيد خصائص شخصيته القديمة برواسبها النفسية والاجتماعية ، ويستبيح لنفسه ما كان يحرمه وينتقده على الآخرين ، بل ويتخذ من ثقافته وخبرته وسيلة لتبرير موقفه ، مؤكدا بان مجتمعه لا يزال غير قابل لتطبيق المبادىء الديمقراطية ، وان الاشتراكية لا تنسجم مع طبيعته ، او هو لم ينضج بعد لتقمصها .

واذا كانت هذه هي حقيقة التخلف ، فان مقاومة التخلف لا تعني تغيير هياكل المجتمع واعادة بنائه فقط ، وانما تغيير البناء النفسي عند افراده ، وهذا ما تشير اليه الآية الكريمة : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ويتضمن هذا التغيير تغيير العادات والتقاليد الفاسدة ، وتغيير المعتقدات والقيم المضرة . هناك مجتمعات بدائية مرت عليها آلاف السنين دون ان تتطور أو تتغير ، لان عوامل التغيير لم تطرأ عليها ، فقد عاشت في العزلة ، وتوقفت حركة نموها في التاريخ ، وهناك مجتمعات اخرى عرفت عوامل التغيير ، فادركت في مدى قرن واحد ما لم تدركه البشرية كلها في تاريخها الطويل .

كيف تتم عملية التغيير الاجتماعي كما حدثت فعلا في تاريخ الحضارات القديمة والمعاصرة ؟

في كل مجتمع توجد دائما بيئة فاسدة ، البيئة الفاسدة هي نفسها تخلق رد الفعل الذي يتمثل في افراد صالحين ، الرجل الصالح في البيئة الفاسدة امام احد مصيرين : اما ان يعود للانسجام مع بيئته التي تستعمل ضغوطها المختلفة لامتصاصه من جديد ، اي لتجعله رجلا فاسدا مرة اخرى ، وفي هذه الحالة ينتهي بالذوبان ، واما ان يصمد امام هذه البيئة ، وحينئذ تستطيع هي ان تقاومه وتقصيه عن قيادتها ، فيعتزل عن المجتمع ليتعطل دوره كمصلح . وهؤلاء الافراد قلة في المجتمع . الفرد اذن عاجز وحده عن القيام بعملية تغيير البيئة الفاسدة، او التأثير عليها .

الطريقة العملية الوحيدة امام الفرد الصالح لتغيير البيئة الفاسدة وهي الطريقة الناجحة اجتماعيا وتاريخيا ، هي ان يقوم هذا الفرد بتكوين بيئة صالحة بجانب البيئة الفاسدة ، البيئة الصالحة يجب ان تنشأ من اعضاء مؤمنين مخلصين ، وعندما يكتمل بناؤها وقوتها ، تقوم بغزو البيئة الفاسدة ، وتغيير بنائها جملة وتفصيلا .

ان قيام الاحزاب الدينية والسياسية والمذهبية خلال التاريخ لم يكن الا رد الفعل الطبيعي ضد البيئات والانظمة الفاسدة ، في نظر اصحابها على الاقل ، وهي في نظر هؤلاء تعبير اجتماعي يمثل البيئة الصالحة . ويجب ان لا ننسى ان هناك شروطا اساسية لنجاح البيئة الصالحة وهي احتفاظها بعناصر الايمان والطهارة والاخلاص . ويصبح الاصطدام بين البيئتين عملية حتمية بعد ظهور البيئة الثانية ، كما ان انتصار البيئة الثانية يعتبر عملية حتمية ايضا ما دامت عناصرها الاساسية قائمة .

ماذا حدث اذن للبيئات الصالحة التي ظهرت في مجتمعاتنا العربية منذ اوائل القرن العشرين ؟ ولماذا لم تنتصر على البيئات الفاسدة ؟ لنذكر بعض الامثلة :

في سنة ١٩٤٨ حينما قامت اسرائيل ، كان العالم العربي يتوفر على بيئات فاسدة ، زادها الاستعمار الغربي فسادا على فساد ، وقتئذ كانت البيئات الصالحة في بداية تكوينها بزعامة مصلحين ، كانت بينها البيئة الدينية ، والبيئة التحررية الاستقلالية ، والبيئة السياسية المذهبية ، بعض هذه البيئات نجحت لفترة زمنية معينة، بيد ان نجاحها هذا هو الذي قادها الى الانهيار بعد ذلك ، لان البيئة الفاسدة عرفت كيف تندس اليها ، وتستغل مكاسبها ، وتحيلها مرة اخرى الى بيئات فاسدة ، وهناك بيئات اخرى فشلت لانها لم تحسن تخطيط عملها ، ولانها اصطدمت بالبيئات الفاسدة قبل ان يكتمل نموها ، وتتوفر لها عناصر النجاح .

وفي المغرب العربي ، وهذا مثل آخر ، ظهرت البيئة الصالحة متمثلة في حركة سلفية دينية لتتحول الى حركة وطنية تحررية ، وقد نشأت هذه البيئة وتطورت خلال ربع قرن تمكنت بعده من هزيمة البيئة الفاسدة ، والاستعمار الذي كان يسندها ، والحصول على الاستقلال . لكن ماذا حدث غداة الاستقلال ؟ ، لقد كان رجال البيئة الفاسدة يحسون

بان مستقبلهم ومصالحهم اصبحت تحت رحمة البيئة الصالحة ، وكانوا على استعداد لتقيير مواقفهم ، والانضمام لصف البيئة المنتصرة مهما كان الثمن ، وفي هذه الفترة بدات اخطاء البيئة الصالحة ، وهي نفس الاخطاء التي وقعت فيها نفس البيئات الصالحة في الشرق العربي نتيجة نزعة التعالي والغرور ، وكان اكبر هذه الاخطاء اعلان البيئة الصالحة ان الشعب كله معها ولها ، ومنها واليها ، وذلك لتبرر حقها في ان تحكم البلاد وحدها ، فاشتد الصراع والانقسام الداخلي ، وتطلع المناضلون للحصول على ثمن تضحياتهم ، وتضاءلت حظوظ الحياة الديمقراطية ، وفي هذا الجو المضطرب والمتميز بفقدان اي تخطيط سابق ، استطاع افراد البيئة الفاسدة شراء اوراق الدخول الى البيئة الصالحة، باذلين كل جهد للاندماج فيها ، وربط مصالحهم بمصالحها ، بل كانوا يشترون اوراق حفلات البيئة الصالحة ليحتلوا مقاعدهم في وسطها ، ويعملوا على تغطية ماضيهم بستار من الوطنية الزائفة ، وهكذا فقدت البيئة الصالحة مناخها الطبيعي النقي ، وفقدت معه القدرة على القيام بعملية التغيير الاجتماعي .

بعد هذه الامثلة الحية الموجزة التي رايناها ضرورية لشرح صورة الجدران التداعية في بناء المجتمع العربي المعاصر ، نستطيع الآن ان ندرك طبيعة الظروف التي وقعت فيها الهزيمة العربية في وقت ما كان احد ينتظر وقوعها ، وبالطريقة السريعة التي تمت بها ، ان البيئة الصالحة التي اعتقدنا ، واعتقد العالم معنا انها قامت في المشرق العربي ، وانها قد وصلت لمرحلة القضاء على البيئة الفاسدة ، كشفت الايام الستة من هجوم اسرائيل، انها لم تكن بيئة صالحة كما كان يتراءى لنا ، لان البيئة الفاسدة كانت قد غمرتها ، وسيطرت على مقدراتها ، وامتصت حيويتها وطاقتها ، لتعرضها بعد ذلك لاشنع فضيحة عرفها التاريخ .

لقد تعثرت كل اماني البيئة الصالحة في المجتمع العربي ، سواء منها الدينية او المذهبية او الوطنية ، وعم التمزق كل المؤسسات الاجتماعية ، واصبحت الوحدة والحرية والديمقراطية التي نادت بها هذه البيئة ، ابعد منالا بعد ه يونيه منها قبله ، وبالجملة اصبحت الحياة العربية كما جاء في افتتاحية عدد مارس ١٩٦٩ من مجلة الآداب : « ان الفساد الذي يعشش في كل زاوية من زوايا الحياة العربية ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ، يحتاج الى مطهر يضع حدا للتخريب الذي يشل كل عمل مخلص ، ويعطل كل رغبة في الاصلاح » . وامام هذه اللوحة السوداء للوضع الذي يعيشه المجتمع العربي ، وبعد فشل المصلحين الدينيين ، والزعماء السياسيين ، والعسكريين الثوريين في اعادة بناء هذا المجتمع ، والقضاء على تخلفه ، تضاعفت مسؤوليات الاديب العربي ، وعظمت اهمية الدور الذي يجب ان يلعبه في بناء مجتمعه العصري .

ومع ذلك ، فان هذا الاديب لا بد ان يكون منتسبا الى بيئة ، هناك اذن اديب البيئة الفاسدة ، هذا الاديب قد لا ننكر عليه ادبه ، وليس من الضروري ان يكون هو فاسدا ، بيد ان ادبه لا يمكن ان يتجاوز حدود القيم التي تمجدها هذه البيئة ، هذا الاديب غير مؤهل سلفا ، بحكم بيئته وقيمه ، للمساهمة في بناء المجتمع العربي . وهناك اديب البيئة الصالحة وهذا هو الذي يمكن ان يلعب دورا كبيرا في بناء هذا المجتمع طالما انه يتوفر على المؤهلات العلمية والفكرية الى جانب مواهبه الشخصية .

بعد هذا ، بقي علينا ان نعود الى اهم عنوان في التخطيط الذي وضعناه في صدر هذا الحديث ، والذي يتعلق بدور الاديب العربي في ابراز مواطن الخلل والاضطراب في ابنية مجتمعه ، وتحليلها ، ووصف خطورتها على الفرد والمجتمع . فلنلق نظرات قصيرة على مواطن الضعف في بعض هذه الابنية ، وخاصة تلك التي تتطلب من الاديب العربي اكبر جهد لترميمها وتقويمها ، واذا كان هذا ليس بالامر السهل ، فان الكشف عن عوامل الضعف في هذه الابنية ، واستجلاءها ، وتقييمها ، ليس بالعمل اليسير ايضا على الاديب ، ولكن مسؤوليته الكبيرة في انجازه تظل قائمة . عندما نستعرض البنيان النفسي الذي يشد العربي شدا ، ويكاد يتحكم في تحديد مواقفه واتجاهاته تحكما مطلقا نلاحظ في هذا البنيان جدارا صلبا اصطلح الشعراء ومؤرخو الادب العربي على تسمية الادب الذي يعبر عنه بالفخر ، ويسميه مصنفو الاخلاق بعلو النفس او الكبرياء ، ويسميه علماء النفس بنزعة التعالي والغرور او مركب الاستعلاء . ان الفخر الذي ورثناه عن الشعر والعصر الجاهليين ، والذي لم يهتم احد حتى الآن ، فيما اعلم بدراسة اثره او خطورته في تكوين وتوجيه النفسية العربية الفردية والاجتماعية ، هذا الفخر اذا كانت خطورته قد اقتصرت في عصور الحضارة العربية الاولى على تدعيم العصبية القبلية ، والحفاظ على استمرار شرارتها ، واذكاء الفتن المحلية ، في مقابل مد المجتمعات العربية بطاقة اضافية من القوة والحماس ، فان خطورته في عصر الصناعة والانتاج اصبحت تتمثل في العلاقات السياسية والاجتماعية ، كما تتمثل في عدة مواقف واتجاهات لها اثر كبير في عرقلة تطور المجتمع العربي وتقدمه ، وخاصة في ميادين العمل والانتاج . ففي ميدان العلاقات نلاحظ ان نزعة الفخر والاستعلاء عند العربي اشبه شيء بقنبلة نفسية ، قد لا تكون خطيرة الاثر بالنسبة للرجل العادي ، ولكنها بالنسبة لزعيم القبيلة ، او حاكم البلاد ، او قائد الجيش ، قابلة للانفجار ضد اي زعيم او حاكم او قائد آخر ، يحاول ان يلامس الشريط المتصل نفسانيا بمنطقة غروره وتعاليه . عندئذ لن تكون المعركة بين شخص وشخص ، ولكنها ستدفع قبيلتين ، او بلدين ، او جيشين الى صراع مرير لم يكونا بحاجة اليه ، ولا شان لهما به . اما في ميدان العمل والانتاج ، فكلنا نلاحظ اثر نزعة الفخر والاستعلاء في امتناع مجتمعات وطبقات وقبائل عربية من امتهان اشغال او مهن تعتبرها حقيرة او مخلة بالكرامة ، وفي وقت اصبح فيه الشغل، ولو كان من نوع خدمة المطابخ في البيوت او المطاعم ، هو القيمة الحيوية التي لا يتانف من القيام بها كريمات رجال المال والاعمال في حضارة عصرنا هذا في الغرب . لا اريد ان اذكر هنا عشرات الامثلة على المشاكل الاقتصادية التي يتخبط فيها مجتمعنا العربي تحت ضغط هذه النزعة بالذات ، ولكنني سأذكر نموذجا واحدا منها لا أنساه ابدا .

منذ سنوات كنت في بيت صديق مغربي يقيم بجدة عندما صاح مضيفي :

ـ رجب هات حذائي .

وارتفع صوت آخر من داخل البيت :

ـ عاشور كلم سيدك .

وقلت لمضيفي : ما معنى هذا ؟

فاجاب وهو يضحك :

ـ رجب خادمي ، اما عاشور فهو خادم رجب !

قلت باستغراب : وكيف ذلك ؟

قال : هذه هي الحقيقة ، انك هنا في مجتمع عربي فح ، يختلف عن مجتمعنا في كثير من الخصائص التي تطورت بحكم الاختلاط مع الشعوب الاخرى ، والبعد الجغرافي عن الوطن الام ، فعندما استخدمت رجب لاول عهدي بالبلد ، وجهلي بقيمه ، لاحظت انه يمتنع عن تلبية الخدمات التي يعتبرها حقيرة او مخلة بالكرامة ، وبعد ايام أحضر معه عاشور ، وهو شاب يمني ، وقال لي : اذا وافقت فان هذا سيساعدني في خدمة البيت وساتكلف انا باداء اجرته ، وزاد مضيفي : ولذلك فان كل عمل محتقر في نظر رجب يطلب منه القيام به يحيله على عاشور . وهذه هي الحال في البلاد كلها ، فان كل الخدمات اليدوية والصناعية، ككنس الطرق ونقل الازبال ، واصلاح اجهزة المياه والكهرباء ، يقوم بها غير سكان البلد الاصليين ، كالعدنيين واليمنيين والفلسطينيين ، وكنت رفقة هذا الصديق عندما صادفنا متسولا ومنحه صديقي قطعة نقود فرفضها قائلا : اني جائع ، ما بي حاجة الى نقود ، بل الى طعام . وبعد ان اشترى له طعاما من دكان مجاور عاد صديقي يقول : هل تريد مثلا آخر على كبرياء العربي الاصيل في هذه البلاد ؟! حتى المتسول له طريقته الخاصة في التعبير عن كبريائه .

لقد استطاع عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي ان يقدم لنا صورة تاريخية حية لنزعة التعالي والغرور في مجتمعه عندما ترك لنا قصيدته الشهيرة :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

وعندما قرر مجلس شعراء مكة منحها وسام الخلود بتعليقها على جدران الكعبة فليس ذلك لانها في قمة البلاغة والابداع الشعري يومئذ، ولكن لانها اساسا عبرت بكامل الدقة والصدق عن قيمة نفسية يعتبرها العربي من اهم خصائصه .

ان باب الفخر في الشعر العربي يأتي من حيث الحجم في طليعة ابواب هذا الشعر ، وهذا يعني ان شعر الفخر يتجاوب مع اقوى نزعة نفسية لا تزال تسيطر على الانسان العربي الاصيل حتى اليوم ، مع الاعتراف بانها اتخذت اليوم صورا واشكالا اخرى للتعبير ، تختلف عن اسلوبها التعبيري في المجتمع الجاهلي . ومن هذه الصور ظاهرة التسابق في بناء آلاف من القصور الجميلة التي لا يكاد يوجد لها نظير في العالم ، والتي امتلأت بها المدن المغربية منذ الاستقلال ، وامتصت نسبة كبيرة من رؤوس اموال الاغنياء المغاربة ، كان يمكن ان تستغل في حركة التصنيع والتشغيل ، لولا انها جمدت بهذه الطريقة ، لارضاء نزعة التفاخر والتعالي على الآخرين ، والغريب في الامر انه لا يختلف في ذلك الغني الامي ، عن الغني المثقف ثقافة عربية اسلامية او اجنبية علمانية. وهناك صورة اخرى لهذه النزعة في مجتمعاتنا العربية المعاصرة تتمثل في الحفلات والاعياد التي تقام بكثرة وضجة ، وتنفق فيها الاموال بسخاء واسراف ، ولسان حالنا ينشد مع عمرو بن كلثوم :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا
وناكل ما يلذ وما يطيب ... ويأكل غيرنا خبزا وتينا

في الوقت الذي يعيش فيه « الغير » وهم ملايين المواطنين ، في البؤس والشقاء .

ان الحديث عن الحفلات يذكرنا بالكرم ، ويلاحظ ان الكرم العربي ما هو الا شعبة مشتقة من الفخر ، فهو ايضا يرضى عند الانسان العربي نزعة التعالي والكبرياء ، ولذلك قلما يمكن اعتباره « نزعة انسانية » والا فلماذا نتكرم في حفلاتنا واعيادنا على الاغنياء دون الفقراء ؟. وهل من الكرم الانساني في ان تنفق سيدة عربية ربع مليون دينار لتغيير اثاث بيتها كي تستقبل فيه ام كلثوم ، في الوقت الذي تعيش فيه مئات الالاف من النساء العربيات في الاكواخ والمخيمات ؟

ومن هذه الصور ايضا حب الالقاب ، وحب الظهور ، وحب السلطة والنفوذ ، ويلاحظ ان اغراق العربي وتطرفه في حب السلطة والنفوذ من اهم العوامل في هذا التمزق السياسي ، والصراع الداخلي المرير ، الذي تعاني منه المجتمعات العربية اشد البلاء .

واذا كنا نعتبر ان نزعة الفخر والاستعلاء في النفسية العربية تمثل انحرافا في البنيان النفسي عند العربي من واجب الاديب العربي ان يعمل على تقويمه ، فذلك لان التوازن في القيم والعواطف الانسانية. شيء ضروري لاستقرار المجتمع الانساني وتقدمه ، والمجتمعات المتخلفة ، انما كانت متخلفة لاختلال هذا التوازن عندها ، اذ عندما يصبح الشعور النفسي بالاستعلاء « الانا » على « الغير » ، مع ما فيه من تهديد لامن وسلامة هذا « الغير » قيمة اجتماعية معترفا بسيادتها في مجتمع ما ، فان هذا يعني اختلال التوازن في هذا المجتمع .

ولعله ليس من الصدفة ان يلتقي معي في هذا الادراك صديقي المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي الذي اكد في كتابه « شروط الحضارة» بأن شعور الكبرياء عند العرب بالاضافة الى كراهية المسيحية الكاثوليكية قد كان احد الاسباب القوية التي منعتهم من امتصاص الحضارات . كما ان الكاتب الفرنسي ريمون شارل في كتابه تطور الاسلام Evolution de L,islam. بعدما أكد بدوره هذا الرأي ونقل كلام مالك بن نبي اضاف قائلا : « ان العالم العربي الاسلامي بعجزه عن تحمل عبء ثقافة ومدنية اجنبيتين تتجاوزان مقدرته ، وبانكفائه على نفسه انكفاء الاستعلاء ، رجع منذ القرنين الثاني والثالث عشر الى السنة القديمة ، وهكذا صده تزمته وتمسكه بتلك السنة عن اية محاولة للتخلص منها ، فاصاب الثقافة والتقدم من ذلك شلل مشئوم » وهناك كاتب انجليزي اخر هو انطوني ناتنغ لم يفته ان يلاحظ هذه النزعة العاطفية واثرها على سلوك المجتمع العربي في كتابه : « العرب » الذي صدر اخيرا ، عندما اشار الى ان العرب قوم عاطفيون غير منطقيين الى حد انهم يفكرون بقلوبهم لا بعقولهم ، ولذلك فان خطهم السياسي عموما استطراد تلقائي من ردود الفعل العاطفية ، وليس هذا نابعا من نوعية المزاج فحسب ، بل ان نظام التعليم الادبي يساعد على تكوين هذه الصفات ، لذلك كان الادب العربي القديم الذي ما زال يدرس في المدارس ، يدعو الى تمجيد المفاهيم القبلية والتقاليد القديمة القائمة على الاعتزاز بالنفس والاخذ بالثار . ويلاحظ انطوني ناتنغ ايضا ان العربي ليس كسولا بطبعه ، ولكن ترى عند العرب شيئا من التراخي النابع من شعورهم بالتفوق بسبب حضارتهم السابقة وفتوحاتهم ، ممتزجا بتخوفهم من الاستغلال بعد القرون التي رضخوا فيها لحكم الشعوب الاخرى

لا شك اننا نحس عمق تحليل انطوني ناتنغ ، وصدق ادراكه لحقيقة البيان النفسي لدى المجتمع العربي ، وما دام قد جرنا هو الى تحليل عاطفة العربي بصفة عامة ، نعود الى ريمون شارل الذي اهتم هو الاخر بوصف المظهر النفسي للعربي المسلم عندما قال : ان عاطفته اولية، لان مزاجه بقي في المرحلة السابقة للمنطق Prés Logique ، وليس معنى ذلك ان الذكاء ينقصه ، ولكن ملكاته العقلية تجمدت وعقمت بسبب قلة ميراثه العقلي ، وان وسائل المعرفة المستندة الى الحكم الشخصي مفقودة عنده ، وما تستند اليه هو الاقوال المأثورة ، وان العنصر السائد عنده انما هو الذاكرة التي تحفظ القرآن ، والطريقة السائدة هي العلم اكثر من التفهم ، فتوقفت عنده المفاهيم العقلية ، والتسلسل المنطقي ...

لقد اتهم ريمون شارل الفكر العربي الاسلامي بانه فكر تحليلي منصرف عن التركيب ، وانه لم يكن يؤمن بتسلسل الحوادث واسبابها، وان علوم الفقه والادب والفن عند المسلمين تسيطر عليها النظرة التحليلية لا التركيبية ، بخلاف علم اصول الفقه الذي اعترف بانه علم تركيبي ، وأكد ان العمل التركيبي صعب ، ويحتاج الى عبقرية وتجديد ، والى النظرة الكلية الشاملة للموضوع برمته ، لا الى النظرة التحليلية المركزة فقط على الاجزاء دون ربط بينها .

واعترف هنا بانني قمت بعدة اختبارات وملاحظات للتاكد من حقيقة هذا الانفصام ، فكنت دائما اواجه فقدان النظرة التركيبية الى الاشياء لا عند عامة الناس بل عند العلماء والمثقفين ايضا ، واذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ان احد اعضاء مجلس الامة المصري طالب منذ سنوات باصدار تشريع يقضي بقطع يد السارق كماهو حكم القرآن الصريح ، باعتبار ان دين الدولة الرسمي هو الاسلام ، ولا ادري كيف وقع التخلص من هذا الاقتراح المحرج يومئذ ، مع ان ذلك كان في منتهى السهولة ، وقد احببت ان اختبر الفكر الديني في المغرب ايضا ، فالقيت السؤال التالي على عدد من كبار العلماء : ان القرآن صريح في ان عقوبة السارق هي قطع اليد فهل تعتقد ان الاسلام يوجب قطع يد السارق اليوم في الاقطار الاسلامية ؟ وكان الجواب دائما : بالتاكيد وهل تشك في ذلك ، او تعتقد ان احكام الاسلام امس يجب ان تتغير اليوم ؟ وكان جوابي : لست اشك فقط ، بل اؤمن بان الاسلام يحرم قطع يد السارق اليوم دون ان تكون احكام الاسلام قد تغيرت بين الامس واليوم ، أليس الاسلام الذي امر بقطع يد السارق هو عين الاسلام الذي امر باداء الزكاة للفقراء كحد ادنى لما يجب اداؤه لتلبية حاجاتهم، فاذا لم تكف وجب ان يؤخذ من اموال اغنياء كل بلد ما يكفي لحاجة فقرائها ، فهل تطبق اليوم اية دولة اسلامية هذا القانون ؟ واذا كنا نحرم الفقير في مجتمعاتنا الاسلامية اليوم من حقه القانوني الذي دعا ابا بكر الصديق الى اعلان اول حرب بعد وفاة الرسول لتطبيق هذا القانون ، فكيف نقوم اليوم بتجريم هذا الفقير وتطبيق عقوبة السرقة عليه في حين اننا نحن المسئولون عن حاجته ؟ ! ، ثم ألم يحدث في عام الرمادة حيث كانت المجاعة ، ان الخليفة عمر بن الخطاب الغى حكم قطع اليد على جميع اللصوص الذين ثبت انهم سرقوا للحاجة ، وضمن لهم نفقتهم من بيت المال ؟ ان القانون الاسلامي كل لا يقبل التجزئة ، واحكامه متكاملة لا مستقلة،وقد نهانا القرآن نفسه ان نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، والخطأ كله يأتي من تفكيرنا ونظرتنا التحليلية المجزأة ، وعدم قدرتنا ، ونحن بصدد الحكم في مسالة ما ، على استيعاب كل ارتباطاتها وتفاعلاتها مع المسائل الاخرى . والواقع ان احدا من

هؤلاء العلماء ، لم يكن يتردد ، بعد هذا الشرح ، عن التراجع عن رأيه الاول ، والارتفاع الى النظرة الشاملة للموضوع .

وقد يكون من المؤسف حقا ان تكون هذه الملاحظة التي وقع تسجيلها عن الفكر الديني الاسلامي ، قد تكررت بالنسبة للفكر الاقتصادي والاجتماعي بل وحتى للفكر العسكري . ففي مجتمعاتنا العربية بالرغم من مظاهر البؤس والفقر التي تعمها من جهة ، بجانب مظاهر الترف والغنى التي تغمرها من جهة أخرى ، لا يكاد يلاحظ وجود تيار فكري عام ضد هذا التناقض وفقدان التوازن لا من جانب الفقراء للضغط على الاغنياء ، ولا من جانب الاغنياء لمساعدة الفقراء ! ، هناك مجتمعات عربية لا يتجاوز معدل الدخل السنوي الفردي فيها ١٤٠ دولارا في السنة ، بجانب مجتمعات اخرى يبلغ معدل دخل الفرد فيها اعلى دخل في العالم ٣ر١٥٣ دولارا . أي ان الولايات المتحدة تأتي في الدرجة الثانية بعدها حيث يبلغ معدل الدخل فيها ٣،١٥٣ دولارا ، ان النظرة التحليلية المجزأة لهذا الوضع ، لا تثير في نفس صاحبها أي تذمر او سخط ، لانها لا ترى التناقض الكبير ، ولو كانت هناك نظرة شاملة حقا تحس بالهوة وبخطرها وأثرها على مستقبل المجتمع العربي كله ، لتغير الوضع .

ومن الملاحظات التي اثيرت ايضا ان العرب ينقصهم الاحساس بالمستقبل ، ويكتفون في الاهتمام بالحاضر ، واذا فكرت في الغد قيل لك في الحال بيت الشاعر العربي الذي سار مثلا :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

ولعله ليس من الغريب ان يكون هذا هو احساس وتفكير امريء القيس عندما قال : « اليوم خمر وغدا أمر » وهذا يعني ان احساسنا بالازمنة الثلاثة ليس له نفس القوة ، ولا نفس الاهتمام والتفكير في حياتنا اليومية ، فهو أيضا احساس مجزأ ليست له صفة التركيب والشمول .

ويدخل في هذا الاطار ما لاحظناه بمنتهى الدهشة في الميدان السياسي ، ولاحظه الخبراء العسكريون في الميدان العسكري منذ هزيمة يونية ١٩٦٧ ، ان الفكر السياسي العربي برهن على انه قلما يتوقع الاحداث قبل وقوعها ، الشيء الذي يؤكد ضعف احساسه بالمستقبل ، وعدم استعداده لما قد يحدث في هذا المستقبل ، فالعرب منذ أول هذا القرن وحتى سنة ١٩٤٨ ، لم يتوقعوا قيام اسرائيل ولا هزيمتهم في حربها ، وبعد سنة ١٩٤٨ ، وخلال عشرين عاما اخرى ، لم يتوقع العرب انهم سيهزمون مرة اخرى ، وبينما كان العالم كله ينتظر الهجوم الاسرائيلي لتوفر جميع اسبابه قبل ٥ يونية ، فان العرب وحدهم باتوا ليلتهم تلك مطمئنين لسبب واحد هو انهم لم يتوقعوه ، وعندما حدث الهجوم ، قال العرب انهم توقعوا ان يأتي من الشرق لا من الغرب ! ، ولم يتوقع العرب هجوم اسرائيل على مصافي النفط في السويس ، ولا على نجع حمادي ، ولا على مطار بيروت ، وعندما قامت الوحدة بين سوريا ومصر ، وخلال سنوات الوحدة ، لم يتوقع العرب انها ستنفصم في ليلة ما ، ومما لا شك فيه ان العرب لو كانوا يحسون بالمستقبل احساسهم بالحاضر ، ولو توقعوا الاحداث التي مرت بهم ، لكان وضعهم يختلف تماما عما هو عليه اليوم .

نفس الملاحظة يعلنها الخبراء العسكريون الذين قاموا بدراسة حرب الايام الستة ، وقد جاء في احدى هذه الدراسات : « ان العرب خسروا المعركة لان قدرتهم على استيعاب كل الاحتمالات الممكنة في الميدان كانت قدرة معدومة ، في وقت درس فيه الاسرائيليون جميع الاحتمالات والردود عليها حتى تلك التي كان لها من حظ الحدوث نسبة تقل عن واحد في المائة » .

وجاء في هذه الدراسة ايضا : « ان القيادة العربية لم تتوقع امكانية قطع الصلة بين القيادة والجيش العامل في الميدان ، فلما حدث لم يكن هناك اي بديل للجهاز الذي تحطم ، ولم يكن الجند والضباط قد دربوا على اتخاذ المبادرات في مثل هذه الحالة ، ولهذا لم تحدث تغطية هذا الفراغ فكانت الكارثة » ، ان الامثلة على ضعف أو فقدان التوقعات عند العرب كثيرة جدا ، وهذه الظاهرة تؤكد نقص احساس العربي بالمستقبل وقلة اهتمامه به ، وبالتالي قلة استعداده لما يحمله الغد من مفاجآت .

ومن الملاحظات الهامة التي ابدتها بعض الدراسات العسكرية عن اسباب الهزيمة ، ولها صلة كبيرة بمدى احساس وتقدير العربي لمصيره الذي يدخل في حيز المستقبل ، ان هناك صلة وثيقة بين الجانب المادي والجانب النفسي في القتال ، تستند الى حقيقة بديهية تثبت ان « مصير الشعوب يصنع سلوكها » فالاسرائيليون كانوا وظلوا يعتقدون ويصرحون بان معركتهم مع العرب هي معركة حياة أو موت ، وليست قضية كرامة ، بينما الامر بالنسبة الى العرب لم يكن كذلك ، وقد جاء في هذه الدراسة انه لم يكن لدى العرب ما يرغمهم على الاعتقاد بان المعركة بالنسبة اليهم هي معركة فناء او بقاء ، والا لتغير وجه الصدام . هذه الحقيقة قد يوجد بين العرب من يجادل فيها دفاعا عن الكرامة ايضا ، والواقع انها بالنسبة الى الفدائيين الفلسطينيين لم تعد صحيحة ، لانهم باعتراف العالم اجمع ، يقاتلون عن احساس وايمان بان معركتهم مع اسرائيل هي معركة حياة او موت ، فهل نستطيع ان نزعم ان الامر كذلك بالنسبة الى الذين ظلوا عشرين شهرا يستجدون اسرائيل ان تعيد لهم ارضهم ، وبعد ان بح صوتهم ، ونفد صبرهم ، رفعوا الاعلام البيضاء ، معلنين قبولهم لشروط الصلح ؟ أليست هذه هي الهزيمة الصامتة الكبرى في تاريخ الامة العربية وليست ما حدث خلال حرب يونيه ؟! .

بقي علينا ان نتساءل في نهاية هذا البحث عن مصير الوحدة والديموقراطية في المجتمع العربي ، لماذا فشلت الوحدة بعد ان قامت بين بعض اجزاء الوطن العربي ؟ ولماذا لم يتحد على الاقل المؤمنون والمطالبون بها ؟ الجواب العلمي باختصار هو انها انطلقت من مبدأ خاطيء تاريخيا واجتماعيا ، يقوم على اساس انشاء دولة عربية واحدة ، من مجتمعات تختلف ظروفها التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وقد صنعت هذه الظروف لكل منها حدودا نفسية وفكرية وثقافية ، جعلتها ترفض أن تخضع لسلطة الاخر او استغلاله ، مهما يكن اخا وشقيقا في اللغة والدين والمصير المشترك .

ان الاسلوب الوحيد المقبول للوحدة ، والذي طبق بنجاح في الشرق والغرب ، في الدول الاشتراكية والرأسمالية معا ، والذي ينسجم مع طبيعة وحاجات المجتمعات المعاصرة ، ويتلاءم مع طموحها الوطني ، وخصائصها النفسية والفكرية ، هذا الاسلوب هو النظام الفدرالي ، فلماذا يسكت الادباء العرب عن شرح هذه الحقيقة ، ولا يواجهون بها دعاة الوحدة على اساس قيام دولة عربية واحدة ؟

والسؤال الاخير الذي يجب على الادباء العرب ان يجيبوا عنه أيضا هو : لماذا لم ينجح النظام الديمقراطي في العالم العربي كله ، بالرغم من انه يتوفر على جميع انواع الانظمة والمذاهب السياسية ، من الملكيات ذات الحكم الفردي او الدستوري الشكلي ، الى الجمهوريات ذات النظام الرأسمالي او الاشتراكي الشعبي ؟ هل حدث ذلك بمجرد الصدفة ، أم هناك عامل اساسي عميق ، تؤثر فيه اشكال الحكم والانظمة ، والجواب العلمي على هذا السؤال هو ان النظام الديمقراطي الذي يتمتع فيه الفرد والمجتمع بالحرية لم يقم ، ولا يمكن ان يقوم الا في بيئة صالحة ، متقدمة ، لا متخلفة ، البيئة العربية ، مهما اختلفت وتعددت انظمتها ، بيئة متخلفة ، فلا غرابة ان يفتقد فيها الحرية ، ويتلاعب فيها بالديمقراطية .

وبعد فهذا تحليل موجز للصورة التي يوجد عليها بناء المجتمع العربي المعاصر ، وقد رأينا مناطق الخلل والضعف في هذا البناء ، ولاحظنا اثرها في ابنيته النفسية والاجتماعية والفكرية . ان ترميمها وتقويمها ليس بالعمل السهل ، ولن يتم في جيل او جيلين ، ولكن علينا ان نخطط الطريق ، ونبدأ المسيرة ، وسواء كانت اداة عملنا هي المقالة أو القصيدة أو القصة او المسرحية ، فان هدفنا سيظل واحدا : بناء مجتمع عربي اسلامي متقدم ، تسوده الوحدة والحرية والديمقراطية، وتغمره مشاعر الاخوة والمساواة والسلام .

**ادريس الكتاني**
استاذ بمعهد العلوم الاجتماعية
بجامعة محمد الخامس بالرباط